العقيدة والفكر

Mohamed Rabie

العقيدة، سواء كانت دينية أو قومية أو ماركسية، هي وعد عظيم بما سيكون عليه الحال في المستقبل. لكن تاريخ الإنسانية لم يسجل حادثة واحدة تحقق معها الوعد كما تخيلته أية عقيدة ورسمته في مخيلة أتباعها من الناس. لهذا تميل العقائد عموما إلى المبالغة واعتبار الخيال حقيقة، ومحاولة إقناع أتباعها بتصديق إدعاءاتها والدفاع عنها، ودفعهم للترويج لوعود زاهية، لكنها واهية تُضلل الشعوب بدلا من حثها على التفكير والتأمل. وهذا يجعل الإيمان بعقيدة يقوم على وعود دون تفكير كالإيمان بالقضاء والقدر والحظ والنصيب، إيمان يُحوِّل المؤمنين إلى سجناء يعيشون في زنزانة مكيفة ومريحة، لكنها بلا نوافذ تطل على بحر أو جبل، مزودة بكتاب شبه مقدس يمجد فكرة واحدة مكتوبة بصيغ عدة يغلب عليها التناقض. نتيجة لذلك، يصبح من الصعب على المؤمن أن يخرج من سجن العقيدة ويتحرر إلا بالخروج على العقيدة نفسها وعلى فكرها وثقافتها ووعودها، والهروب إلى حيث تعيش الحرية في أجواء نقية تتيح المجال للعقل كي يفكر بعيدا عن فضاءات العقائد ووعودها وسجونها. وتحاول هذه الورقة تشخيص التناقض بين العقيدة والفكر من ناحية، ونفي وجود مفكرين عقائديين.

يقوم سجين العقيدة حين يخرج من سجنه بسرد حكايته مع السجن والمساجين والسجانين بطريقة تفضح أسرار العقيدة المعنية وتكشف الكثير من عيوبها وأكاذيبها. لكن تحرر سجين من الفكرة العقائدية لا يتم إلا من خلال قيامه بفضح ما تعانيه المؤسسة العقائدية ومواقف قادتها من تناقضات وتجاوزات تتعدى القانون أحيانا والأخلاق والقيم غالبا. وهذا يعني أن التحرر من سجن العقيدة يحمل بين طياته تشويه صورة العقيدة، ورفض وعودها، وخيانة مبادئها الأساسية. ومن أجل ردع الأتباع وتخويفهم من مغبة الخروج من سجنها، اتجهت العقائد عموما إلى تطوير أدوات قمع فعالة لزجر الأتباع وتكريس الشعور بالنقص في نفوسهم. وانطلاقا من هذه السياسة، اتجهت كل العقائد إلى وصف الخارجين على مبادئها بالعملاء أو الخونة أو الجبناء، الأمر الذي جعل بالإمكان ملاحقتهم وتحقيرهم، وهتك أعراضهم أحيانا، وتعريض حياتهم للخطر أحيانا أخرى. لكن كل عقيدة لا تصمد أمام النقد إلا بتوجيه الاتهامات للآخر هي عقيدة ضعيفة، لا تقدم لأتباعها غير مذلة التبعية، والغرق في بحور وعود ضالة ومضللة.

وحتى أولئك الذين يتجنبون إتباع فكرة عقائدية لعدم قناعتهم بها، ويفضلون عيش حياتهم بعيدا عنها، لا يسلمون عادة من ملاحقة السجانين وعقدهم النفسية ونزواتهم المرضية. فالسجانين لهم مهمة واحدة فقط: إدخال كل من يستطيعون إدخاله من الناس في سجونهم وحمايتهم من التحرر من هواء السجن الملوث بالكذب والتعرض

لهواء الحقيقة المعطر برائحة الحرية. وهذا يجعل السجانين لا يتوقفوا أبدا عن التشهير بمن يعيش خارج سجونهم، وتشويه سمعتهم، واتهامهم بالجهل حتى وإن كانوا من أفضل العلماء، والاتجاه أحيانا لمحاربتهم بهدف إسكاتهم، وذلك لأن العلم في قواميس العقائد يقتصر على حفظ طلاسمها، والإيمان بأكاذيبها العذبة، وتكرار وعودها الزائفة.

وفي حالة استيلاء عقيدة على السلطة، فإنها تتحول إلى أيديولوجية، ويتحول المجتمع في ظلها إلى مجتمع عنصري، وتتحول الدولة بسبب ذلك إلى جهاز قمع وكبت على درجة عالية من الكفاءة والقسوة.. جهاز يقوم بعقاب كل من يتجرأ على التشكيك في شرعية الدولة أو مصداقية الأيديولوجية. وهذا يدفع الدولة عادة إلى تشكيل أجهزة مخابرات، تكون عيونا لها في الداخل والخارج، تتجسس على منتقديها وتلاحق معارضيها، كما تلاحق القطط الضالة الفئران الضعيفة محاولة اصطيادها والتمثيل بها. أما العقائدي المؤمن فيتجه في معظم الأحيان إلى البحث عن كل معلومة وإشاعة وظاهرة تدعم ما يؤمن به من أفكار ومعتقدات غيبية وما تتوقع حدوثه من حتميات. وفي المقابل، يتجه العقائدي هذا نحو إهمال كل معلومة وحقيقة تتعارض من مبادئ عقيدته دون أن يفكر كثيرا في تبعات مواقفه على الوطن الذي يعيش فيه والشعب الذي يعمل من أجله ويدعي الدفاع عن حقوقه. وفي الواقع، يتجه كل عقائدي إلى توظيف ما لديه من ملكات عقلية ومواهب حوارية ومعارف تاريخية لتبرير السياسات المتبعة، وتبرئة الايديولوجيات والقيادات الأيديولوجية من الجرائم التي ترتكبها والأخطاء التي تقع فيها والتجاوزات التي تمارسها.

يميل الناس عامة والعقائديون خاصة إلى تكوين صورة في أذهانهم للعالم المحيط بهم، تحدد لهم كيفية عمله وموقعهم منه وعناصره التي تهمهم أكثر من غيرها. وبناء على ذلك، تقوم أغلبية الناس ببناء نماذج حياتية وبرامج سلوكية خاصة بهم، يتعاملون بموجبها مع الغير من الناس وتحديات الحياة، مما يقودهم إلى العيش والتفكير والتصرف كروبوتات تعمل دون وعي وعقل إلى درجة كبيرة. ومن أفضل الأمثلة وأسهلها على فهم هذا الأمر ما يفعله الإنسان أثناء قيامه بقيادة سيارته من بيته إلى مكان عمله اليومي. إنه لا يفكر في الطريق ولا في كيفية الوصول إلى مكان العمل لأن البرنامج الخاص بتلك المهمة تم وضعه في الرأس قبل أشهر أو سنين وتدريب العقل على إتباعه. وهذا يعني باختصار أنه بعد أن يُكوِّن العقائدي صورة للآخر والكون المحيط به، ويبني نماذج سلوكية ذهنية وفعليه، ويبرمج العقل على إتباعها، تصبح البرامج بمثابة غرائز لا تحتاج إلى تفكير. وهذا يقود العقل العقائدي إلى أخذ إجازة خاصة تستمر ما دام صاحبه يسبح في بحور العقيدة الهادئة، ويتمتع بما رسمه لنفسه من صور وخيالات ووعود زاهية. وفي ضوء تغير الظروف وتبدل الأزمنة وتعدد المفاجآت، يصبح العقائدي عرضة لارتكاب أخطاء كبيرة، وأقل قدرة على التواصل مع غيره من الناس وفهمهم، وضعيف الرؤية لإدراك الفرص المتاحة واغتنامها لتحقيق النجاح.

وحيث أن الصور والتخيلات والبرامج تُبنى بإرادة ذاتية وتأتي بناء على تجربة تقودها عقيدة، فإن بالإمكان بناء صور وتخيلات وبرامج جديدة لتحل محل القديمة. لكن على الإنسان أن يستحوذ أولا على الوعي المطلوب بضرورة التغيير عند الحاجة، ويملك ثانيا الإرادة الكافية لإحداث نقلة نوعية في طريقة تفكيره تفتح له المجال لاستخدام عقله بشكل بناء. ومن أجل ضمان عملية التطور وعدم التقوقع مجددا حول الذات، والحيلولة دون تحويل الجديد إلى عقيدة تُقيد حرية التفكير واستخدام العقل، على البرامج الجديدة أن تكون فضفاضة، تشمل على ميكانيكيات تعمل على تعديل وتصحيح المسارات بشكل مستمر، وتعيد النظر في الصور والخيالات والبرامج المستعملة بين فترة وأخرى.

يقول لورنس جونزاليس Laurence Gonzales في كتابه Every Day Survival: How Smart People do Stupid Things إن برمجة العقول تتسبب في كبت رغبة الناس في جمع المعلومات عن الأشياء وأمور الحياة التي تعنيهم، ما يجعلها تقود إلى إضعاف غريزة حب الاستطلاع لديهم، فيما تعمل على تقليص قدراتهم على إدراك حاجتهم لتحليل الأشياء والأحداث الطارئة. وفي الواقع، تؤدي البرمجة العقلية بناء على قوالب فكرية عقائدية إلى تحديد قدرة العقائدي على إدراك حقيقة وأهمية ما لديه من معلومات ومدى حاجته لمعرفة المزيد، وإضعاف رغبته في الاستماع لآراء الغير من الناس واستيعاب طبيعة ومعاني ما يقولون ويفعلون. وهذا من شأنه أن يُقلص قدرته على تحديد موقفه من الغير بناء على ما يسمع من أقوالهم وما يرى من أفعالهم، وليس بناء على ما في مخيلته من تخيلات وصور عنهم. إن العقائدي إنسان مُسير لا مُخير، مُسير بإرادته خلافا لطبيعته، يتحرك بناء على قوالب فكرية شبه غريزية من صنع غيره.. قوالب تحد من قدراته على فهم كيف يعمل العالم الذي يعيش فيه، ولماذا يعمل بالطريقة التي يعمل بها، ومن هي القوى التي تحركه وكيف يمكن له التأثير فيها. كما تحد من قدراته على فهم طبيعة العلاقة التي تربط الناس بالبيئة الطبيعية والاجتماعية والتكنولوجية التي تحيط بهم، وكيف بإمكانهم الاستفادة من أخطاء غيرهم، ومما تتيحه لهم الظروف المتغيرة من فرص.. وهذه صفات تسلب العقائدي مؤهلات القيادة المجتمعية والقدرة على استخدام العقل للتعامل بإيجابية وواقعية مع الغير من الناس والأحداث والأشياء.

يتأثر عقل الإنسان المؤمن بأفكار عقائدية مبنية على غيبيات كما يتأثر الإنسان المُدمن على شرب الكحول وتعاطي المخدرات. وعلى الرغم من أن الناس يتأثرون بتلك الأمور بدرجات متفاوتة تبعا لنوعية الكحول والمخدرات ومدى إدمانهم على تناولها، إلا أن كل الكحول والمخدرات تحتوي على مواد سامة تسلب جزءا كبيرا أو صغيرا من قدرة العقل على التفكير الواعي وتُعطله جزئيا عن ممارسة نشاطاته التي خُلق من أجل ممارستها. وهذا يعني أن العقائدية تشل قدرة العقل على التمييز بين الصواب من الخطأ، وتحديد ما يجب وما لا يجب البوح به من أسرار ومعلومات، فيما تفسح المجال للعواطف والخيال والأحلام والأوهام كي تستولي على دور العقل في تحديد المواقف والحكم على

الأشياء واتخاذ القرارات. إن نجاح المخدرات في تعطيل العقل كثيرا ما تقود المتأثر بها إلى البوح بما لديه من مشاعر كبت وحرمان وكراهية وحسد وغيرة دون وعي.. مشاعر يتجاوز عمرها أحيانا عشرات السنين.

أثناء انعقاد مؤتمر الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطنيين في تونس عام 1977، شرب أحد الزملاء من أيام الدراسة الجامعية في القاهرة ما يكفي من الخمر لتعطيل عقله عن العمل، وعندها شاهدت الزميل يوجه التهم والشتائم للسيد محمود غنيم عضو اللجنة المركزية لحركة فتح أمام حشد من الناس في بهو الفندق دون سبب. وحين أمسكت بيده وحاولت جره بعيدا عن الناس نظر إلي نظرة غريبة ثم بدأ يقول أشياء لم يكن بإمكاني أن أتخيلها. إذ قام بتوجيه تُهمٍ وشتائم عبرت عن حسده وغيرته لأنني تمتعت بحياتي وحريتي وحققت نجاحا في الجامعة أفضل منه. نعم، لقد حرم الزميل نفسه من أشياء كثيرة أثناء الدراسة فيما داوم على الصلاة في جامع الحي الذي كان يسكن فيه، لكنه تعلم شرب الخمر في بيروت بعد أن أصبح من قيادات حركة فتح، وذلك على أمل أن يعوض بعض ما فاته في القاهرة، دون أن يدرك أن ما فات مات، وأنه لا يمكن تعويضه بسبب تغير ظروف الحياة والمواقع الاجتماعية ونوعية المسؤولية الملقاة على عاتق كل واحد منا. ومع أنه بودي أن أذكر اسمه إلا أنني أعتذر عن ذلك لعدة أسباب، أهمها أنه، مع الأسف، غادر الحياة الدنيا منذ سنوات، ولأنني آتي على ذكر هذه الحكاية لأعطي مثالا وليس للحديث عن شخصية احترمها. إن اعتناق عقيدة والتعصب لها، سواء أكانت العقيدة المعنية اجتماعية ثقافية أي دينية، أو اجتماعية سياسية أي قومية، أو اجتماعية اقتصادية أي ماركسية يتسبب في كل الحالات في تعطيل عقل العقائدي المتعصب، ويفتح المجال واسعا للعواطف والمشاعر والأحقاد الدفينة لتعبر عن نفسها في أبشع صورها، كارتكاب جرائم القتل الجماعي التي حدثت في البوسنة وفلسطين والعراق ورواندا وكمبوديا وروسيا في عهد ستالين وغيرها.

وكما أشرنا سابقا، كل عقيدة تتحول إلى تنظيم سياسي بهدف الاستيلاء على السلطة تصبح أيديولوجية تمارس القمع ضد الآخر. فالأيديولوجية التي تقوم على تقديس الثقافات التقليدية تمارس القمع ضد المرأة والطفل والأسرة من خلال الرجل، والأيديولوجية التي تقوم على أساس ديني تمارس القمع ضد أتباعها المُتسائلين ومعارضيها المُنتقدين من خلال حلقات الوعظ والتثقيف والترهيب. والأيديولوجية التي تدعي شرعية تاريخية مثل الماركسية تمارس القمع على المجتمع الذي تسيطر عليه باستخدام أداوت القمع البوليسية والمخابراتية والبيروقراطية والمؤسسات الإعلامية والانفراد بالسلطة، والأيديولوجية التي تنبثق من أفكار قومية عنصرية تمارس القمع ضد الآخر من خلال هدر حرياته ومصادرة حقوقه وتحقير إنسانيته وتهجيره من وطنة أحيانا. والأيديولوجية التي تنطلق من أساس مادي كالرأسمالية تمارس الاستغلال البشع وأحيانا القمع والتفرقة ضد الفئات الضعيفة والفقيرة والشعوب المستضعفة. لذلك لم يعرف التاريخ أيديولوجية قامت في الماضي باحترام إنسانية الإنسان والاعتراف بحقوقه كاملة، وتطبيق مبدأ المساواة

بين أتباعها والغير من مواطنين. وهذا فرض على الإنسان الذي يختار البقاء في وطنه ولكن خارج سجن الأيديولوجية أن يُبرمج عقله على إتباع أسلوب يقوم على الإزدواجية.. أن يُبطن ما لا يُظهر، أن يقول ما لا يفعل، أن يدافع عما لا يؤمن به، أن يبدي تصديق ما يسمع بينما يُكذِّب عقله وقلبه ما يُفرض عليه سماعه، وأن يقبل لنفسه أن يصبح في أعين المقربين منه، كأولاده وأصدقائه وطلابه مثالا للنفاق والانتهازية، وإلا لن يكون بإمكانه أن يتجنب الاتهام بالخيانة والعمالة وتعريض نفسه لملاحقة أجهزة الاستخبارات والسجن أحيانا.

توفر المجتمعات التي تلف نفسها بعلم الوطن، والتي تطلي وجوهها بتراب التراث أفضل بيئة اجتماعية وثقافية لسيادة الأيديولوجيات الأكثر تزويرا وكذبا، والأقدر على ممارسة القمع والكبت ضد الآخر. إن المجتمعات الوحيدة القادرة على تحصين أنفسها من القمع والكبت والكذب والوعود الزاهية الواهية هي المجتمعات المفتوحة التي تسود فيها ثقافة التسامح وحرية الفكر والرأي. فهذه مجتمعات تؤمن بأن أفضل طريقة للإيمان تبدأ من الشك، وأن أكفأ وسيلة للوصول إلى اليقين والحقيقة هي استخدام العقل وتحكيم الضمير. إن مثل هذه المجتمعات تعتبر الأقدر على تصحيح الأخطاء وتقليل احتمالات الوقوع فيها ثانية، وذلك لأنها تدرك أن حل المشاكل المجتمعية ومواجهة تحديات الحياة يستوجب الرجوع إلى العلم كلما ساءت الأحوال العامة وازدادت أمور الحياة تعقيدا. كما تدرك أيضا أن الإنسانية كلٌ لا يتجزأ، وأن السير قدما على طريق التطور يستوجب الاتعاظ بالتاريخ والتعلم من تجارب الغير من الشعوب، وذلك لأن التجربة الإنسانية هي عبارة عن معارف علمية قيمة، وإنجازات حضارية لا تقدر بثمن أسهمت البشرية في تطويرها، ما يجعلها ملكا للبشرية جمعاء وعبرا لا يجوز إهمالها أو التصرف في غيابها.

كثيرا ما تتحدث جريدة أو قناة فضائية عن "مفكر قومي" أو مفكر إسلامي" أو "مفكر ماركسي"، دون وعي بأن كل عقائدي يتصف بالعجز الكلي أو الجزئي عن استخدام عقله، علما بأن العقل هو أداة التفكير والتأمل الوحيدة التي منحها الله لمخلوقاته من البشر. إن الفكر ليس إنتاجا عاطفيا ولا معجزة فردية تحدث خارج نطاق العقل والوعي، وليست عملية تقليد يرثه الإنسان أبا عن جد، ولا تراثا أو خرافة غير قابلة للتقادم؛ التفكير عملية إنسانية خلاقة لا تتوقف لحظة واحدة عن تجديد نفسها، ما يجعلها تنتج فكرا جديدا. لهذا لا يوجد إنسان يمكن أن يوصف بأنه مفكر ما دام مرتبطا بعقيدة أو أيديولوجية ومؤمنا بحيثياتها ويقوم بالدفاع عنها. لذلك لا يجوز ولا يصح الحديث عن شيء أو تمجيد شخص لا وجود له. إن العقائدي الذي يحسن الحديث عن عقيدته يجب أن يُنظر إليه بوصفه مجتهدا أو أو مفسرا لطلاسم عقيدته، لكنه ليس مفكرا. إن أفضل ما يقوم به العقائدي عادة هو الدفاع عن أخطاء عقيدته وتمجيد أقوال وأفعال قادتها وتبرير ما قامت بارتكابه من جرائم بحق الغير من الناس عبر تاريخها. أما المفكر فهو إنسان يلتزم باستخدام العقل أولا، ولا يقبل حتميات تاريخية أو غير تاريخية، ما يجعله يضع كل العقائد على نفس

المستوى الفكري والأخلاقي، وينظر إليها باعتبارها فلسفات حياتية تملك إيجابيات وسلبيات. وبناء على ذلك يرفض المفكر مبدأ القبول بعقيدة واحدة على علاتها وهيكلة الحياة على أساسها، بل يحاول أن يوضح ما لكل عقيدة وما عليها بأمانة، ويترك للشعب أن يختار ما يريد وأن يقرر مصيره بنفسه، فالحرية بالنسبة للمفكر هي أقدس المقدسات التي لا يجوز المساس بها وحرمان إنسان منها.

العقائدي والديمقراطية

العقائدي هو شخص يؤمن بأن المنطلقات الفكرية والمبادئ الأساسية التي يستمد منها أفكاره ويبني عليها مواقفه هي فلسفة حياتية متكاملة تملك الحقيقة بالنسبة لحياة الإنسان ومسارات تطورها، مع أن الأفكار هي فلسفة هلامية لا تتوقف عن التطور والتحول. ويمكن تصنيف العقائد عامة إلى ثلاثة أصناف: عقائد دينية أي اجتماعية – ثقافية تقوم على الغيب وتطلب من أتباعها الإيمان بمقولات لا يمكن إثباتها علميا، والقبول بصحة أحداث ماضوية لا يمكن التحقق من وقوعها عمليا. وعقائد قومية أي اجتماعية – سياسية تقوم على الادعاء بوحدة الشعوب وبحق كل شعب بكيان سياسي خاص به يقرر فيه ومن خلاله مصيره بنفسه، وتطلب من أتباعها الإيمان بوحدة التاريخ والمصير. وعقائد اجتماعية – اقتصادية أي ماركسية تقوم على الادعاء بأن المادة هي العامل الأساس في تحديد مسارات التاريخ وما تعيشه المجتمعات الإنسانية المختلفة من تطور وصراع، وتطلب من أتباعها التمسك بالصراع الطبقي كأداة اجتماعية لتحرير الفرد من ظلم رأس المال والدولة. أما العقائد الدينية التي تدعي أن مصدرها خالق الكون، كالإسلام واليهودية والمسيحية، فتؤمن أيضا بأنها تملك الحقيقة المتعلقة بالكون وما بعد الحياة على هذه الأرض.

وحيث أن العقائدي يملك معظم أو كل الحقيقة كما تدعي عقيدته عادة، فإنه لا يجد سببا وجيها أو مبررا للتفكير فيما يأتي بعد مبادئ وأوامر ونواهي عقيدته. إن أقصى ما يرى العقائدي وجوب التفكير فيه هو الغوص في داخل عقيدته للبحث عن المزيد من الغيبيات والمقولات التي تتجنب الخوض في الواقع والتعامل مع أزماته؛ الأمر الذي يدفع المؤمن هذا إلى تحميل مسؤولية كل فشل عقائدي إما لعدم تطبيق النظرية العقائدية كما يجب، أو لعدم فهم الناس لها بسبب جهلهم وتقصير المسؤولين عن العملية التعليمية في شرحها لهم. وفي ضوء هذا المنطق، يصبح المزيد من الانغماس في طلاسم العقيدة، والتمسك بمبادئها وتقاليدها، وترديد مقولاتها وشعاراتها التي تجاوزها الزمن منذ زمن بعيد هي فعل حقيقي من شأنه حل الإشكالات المجتمعية وتحقيق المنى.

إن ادعاء كل عقيدة وكل عقائدي امتلاك الحقيقة يدفع العقائدي دوما، ومن حيث لا يدري، إلى منح نفسه حقا لا يمنحه للآخرين، بل يعمل جاهدا على حرمان الآخرين منه. فالعقائدي يرى أن من حقه أن ينتقد آراء الآخرين

ويقلل من شأنها، ويحقر أحيانا نظرياتهم ومقولاتهم، ويشكك عموما في وعيهم وذكائهم وإخلاصهم لوطنهم وأمتهم، دون أن يسمح لهم بفعل الشيء نفسه والقيام بنقد نظرياته والتشكيك في آرائه. وما دامت كل عقيدة تختلف عن الأخرى، وتدعي في الوقت ذاته بأنها وحدها تمتلك الحقيقة دون سواها من عقائد أخرى، فقد أصبح من الصعب حدوث حوار بناء بين عقائديين يؤمنون بعقائد متباينة، ومن شبه المستحيل قبول عقيدة بمبدأ الديمقراطية الذي يقوم على الاعتراف بحقوق فكرية وسياسية واجتماعية ودينية متساوية لكافة أفراد المجتمع. وفي الواقع تقوم كل عقيدة وتعيش ليس على إنجازاتها في مجالات التنمية أو الحرية أو العدالة الاجتماعية، وإنما على نفي الآخر والتشكيك في عقلانيته وأمانته. ومن خلال نفي الآخر وعدم الاعتراف بحقوقه تقوم كل عقيدة بكبت الحريات العامة، وفرض وجهة نظرها ومقولاتها وتقاليدها على المجتمع، محدثة بذلك حالة من الجمود الفكري والتدهور الأخلاقي والرياء الاجتماعي والذعر السياسي. لهذا نلاحظ أن حوار الأديان، خاصة حوار المسيحية والإسلام فشل في تحقيق أي إنجاز يذكر. ولقد قمت في تلك الأيام بالاعتراض على اسم الحوار لأن العقائد ليست سوى مبادئ جامدة لا يمكن لها أن تتحاور. فالحوار يجري عادة بين من يؤمنون بعقائد متباينة بهدف تقريب وجهات النظر وتخفيف حدة العداء والمواجهة.

إن الادعاء بامتلاك الحقيقة من ناحية، وتباين المنطلقات الفكرية والمبادئ الأساسية للعقائد المختلفة من ناحية ثانية، يجعل من غير الممكن أن تكون إحدى العقائد صائبة تماما، وتكون جميع العقائد الأخرى مخطئة كليا. وهذا يوجب الابتعاد عن العقائدية بوجه عام، والتحلل من الروابط المكبلة للعقل والمعادية للآخر بوجه خاص، والأخذ من كل فكر ومن كل تجربة إنسانية ما يقبله العقل، ويعمق إحساس الفرد بإنسانيته، ويعود على المجتمع بالخير والرخاء والاستقرار. وهذا يتطلب تعزيز السلم الاجتماعي، وتشجيع العمل الجماعي، وحماية حرية الفكر والتفكير والمعتقد الديني ونمط الحياة بالنسبة لكافة أفراد المجتمع.

العقائدية والفكر

على الإنسان العاقل أن يدرك أنه من الصعب جدا التحاور مع عقائدي من داخل عقيدته، لأن ذلك يعني القبول بمنطلقات تلك العقيدة وحيثياتها من حيث المبدأ، والتوجه نحو التحاور حول التفاصيل، الأمر الذي يُمكن المؤمن من هزيمة المتحدي. في العادة، يقوم العقائدي بذكر إحدى الآيات الدينية المقدسة، أو المقولات الماركسية أو القومية المركزية، ما يفرض على المتلقي أن يتعامل معها بوصفها حقائق، فما تشكل في الواقع حجرا ثقيلا قد يؤدي إلى كسر رأس المتحدي، ما يجعله يفقد توازنه وقدرته على الرؤية ومواصلة الحوار. لهذا كان على المحاور أن يتبع الإرشادات التالية في حواره مع المؤمنين بعقائد دينية ونظريات أيديولوجيات:

1. أن يقوم المتحدي بأخذ زمام المبادرة والتحاور مع المؤمن من خارج عقيدته، وذلك برفض الأسس التي تقوم عليها تلك العقيدة، وتوظيف المقولات العقائدية نفسها كبراهين على عدم واقعيتها وفشلها في تحقيق ما تدعو إليه من أهداف إنسانية.

1. سرد بعض ما جاءت به كتب التاريخ من حكايات ومعلومات تثبت أن كل الدول والإمبراطوريات القديمة التي قامت على أسس عقائدية أيديولوجية انتهت بالفشل، مع أنها حققت نجاحا مرموقا في بداية الأمر. ويعود الفشل إما نتيجة لما اتصفت به من جمود تسبب في تراجعها وانهيارها من الداخل، كما حدث بالنسبة للإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية العربية الإسلامية، أو نتيجة لقيام الدولة المعنية بمغامرات غير محسوبة انطلاقا من مبادئ العقيدة التي هيمنت على عقل الحاكم ونظام الحكم كما حدث بالنسبة لألمانيا واليابان.

2. إن كل محاولات إعادة بناء الدول العقائدية المنهارة فشلت فشلا ذريعا حتى في تحقيق الحد الأدنى من النجاح، وأن المحاولات الناجحة قامت على أسس علمية وعملية غير عقائدية بعد التخلي عن روح العقيدة وأطرها الفكرية والثقافية، وذلك كما حدث في الصين وروسيا بعد انهيار الشيوعية.

3. إن أنجح تجربة في التنمية والتحرر حدثت في أمريكا بعيدا عن الأيديولوجيات الدينية والقومية والماركسية. إلا أن قيام أمريكا بتطوير الرأسمالية والديمقراطية إلى أيديولوجية بدءا من ثمانينيات القرن الماضي، والادعاء بأنها كيان وشعب استثنائي في التاريخ جعلها تدخل مرحلة التراجع والتآكل من الداخل.

ويمكن القول باختصار بأن سجلات التاريخ تثبت أن كل عقيدة نجحت في بادئ الأمر في تحقيق الكثير من أهدافها لأنها جاءت بوعود زاهية مكنتها من تجميع الناس من حولها أملا في التخلص من الفقر والظلم الحاجة، إلا أن كونها تقوم على مبادئ وفرضيات ثابتة لا تتغير جعلها تتخلف عن العصر وتفشل في مجاراته، وبالتالي تتراجع وتختفي أحيانا من الوجود. ويعود السبب في هذا الأمر إلى أن الزمن وظروف الحياة ومعطياتها لا تتوقف أبدا عن التطور والتغير، ما يجعل جمود العقائد والأيديولوجيات هو حكم ذاتي على النفس بالفناء والغياب عن الوجود عاجلا أم آجلا.

البروفسور محمد ربيع يحمل لقب أستاذ متميز في الاقتصاد السياسي الدولي؛ درس في 5 جامعات، وقام بالتدريس في 11 جامعة في أربع قارات. نشر حتى اليوم 60 كتاباً، 17 باللغة الإنجليزية، وواحد باللغة الألبانية، والباقي باللغة العربية. وتشمل الكتب الإنجليزية أربعة نشرتها دار: Palgrave Macmillan خلال 4 سنوات، 2013-2017 : إنقاذ الرأسمالية والديمقراطية؛ التحول الاقتصادي والثقافي العالمي؛ نظرية في التنمية الاجتماعية الثقافية والاقتصادية المستدامة؛ أزمة الديون العالمية وآثارها الاجتماعية والاقتصادية. أحد الكتب المنشورة بالإنجليزية، وعنوانه "تاريخ العنصرية" تُرجم إلى 6 لغات أخرى: الألمانية

والفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والبولندية. أما الكتب العربية فتشمل 3 مجموعات شعرية، وروايتين، وقصة. والباقي كتب أكاديمية وفكرية وتأملات فلسفية، إضافة إلى عشرات الدراسات العلمية ومئات المقالات الفكرية.

الدكتور ربيع يرأس مجلس الفكر العربي في واشنطن، وعضو منتدى الفكر العربي، وزميل في مؤسسة ألكساندر فون هومبولدت الألمانية منذ عام 1992. وقد استطاع إكمال دراسته بالحصول على منح دراسية منذ المدرسة الثانوية حتى الحصول على الدكتوراه في الاقتصاد عام 1970من جامعة هيوستن في أمريكا. حائز على جائزة دولة فلسطين التقديرية على مجمل الأعمال الفكرية، وجائزة الجالية العربية في مدينة هيوستن للتميز الأكاديمي والقيادة، كما فاز بجائزة في الشعر في مهرجان تيتوفا في ماسيدونيا الجنوبية، وعدة جوائز أخرى حصل عليها من جامعات ومؤسسات عربية وأجنبية. وتعكس كتاباته ومواقفه ونشاطاته التزاماً بمبادئ السلم والعدالة الاجتماعية والمساواة والحرية والتنمية البشرية، فضلاً عن الاستدامة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والبيئية.

ولما كان شعاري هو : "المعرفة التي لا نشارك غيرنا فيها هي معرفة ضائعة، وأن المشاركة تتسبب في مضاعفة عدد المعرفيين"، فإنني أطلب من كل قارئ أن يوصي بكل دراسة وكتاب يُعجبه، لأنه بذلك يُساعد من لم يتعرف على الكتاب وما فيه من فكر مفيد. إننا جميعا نشترك في مسؤولية تغيير عالمنا ليكون أكثر ميلا للسلم والعدالة والحرية. وهذا هدف سامي لا يمكن تحقيقه دون أن نشارك جميعا في نشر المعرفة والوعي في كافة بقاع الأرض التي ورثناها وعلينا أن نحافظ عليها.

بروفسور محمد عبد العزيز ربيع

www.yazour.com

Links to Google Scholar and ResearchGate.

https://scholar.google.com/citations?user=evo_c4QAAAAJ&hl=en&citsig=AMD79op143N3h2Qo7R_hDsZtzBuYxsGi6g

https://www.researchgate.net/profile/Mohamed-Rabie-2

https://www.encyclopedia.com/arts/culture-magazines/rabie-mohamed